خولة القزويني في رائعتها
هيفاء تعترف لكم

صلاح حسن رشيد-مصر

باحثة عن مكان لحواء تحت الشمس، ولاهثة من أجل أن تثبت ذاتها وجدارتها وقدرتها على الإضافة والإسهام في حقل الثقافة والفكر والأدب.. وأن تبني لبنات جنسها صرحا ممردا من لآلئ المعرفة، وعبقرية الكلمة وقوة الأداء والتعبير، وروعة الخيال، عبر التزود بثقافة أصيلة من تراثنا الحضاري، مع الانفتاح على ثقافات الآخر، والإفادة من كل آداب العالم.. هكذا تنسج الأديبة الكويتية خولة القزويني من خلال روايتها الرائعة « هيفاء تعترف لكم » الصادرة عن دار الصفوة ببيروت.. قصورا من الحرية الملتزمة، والطموح الهادف للمرأة، التي تواجهها المصاعب الأسرية والاجتماعية والحياتية.. فهيفاء فتاة جميلة، في مرحلة الثانوية العامة، مات والدها (الرمز/ القيمة) بالنسبة لها، والركن الذي تحتمي به عند المصائب، والواحة التي تجد في فنائها الراحة والسكينة، والقدرة على الحياة، لكنه مات، ففقدت الحياة، وأضحت تخبط خبط عشواء، وتاهت أحلامها في وهاد الضياع، وانكمشت على نفسها، غير قادرة على تصديق هذه الفجيعة.. إلا أن أخاها وأمها بخلاف ذلك، لأنه لم يكن قريبا منهما مثل (هيفاء)، التي رأت فيه العلم والأدب، حيث كان يختلي بمكتبته ويتغزل في كتبها، وينشد الثراء المعرفي عن طريقها، وهو شيء لم ترغب فيه زوجه التي كان همها المال والظهور والمباهاة، فكانت تعنفه، وتظل تتشاجر معه. أما هيفاء فكانت تناجيه وتعتبره مثلها الأعلى، وقدوتها في الحياة، والجدار الذي يقيها زوابع الأيام، بعلمه وفطنته واتساع مداركه.

الحكي والسرد والحوار

ولعل أقوى ميزة في رواية خولة القزويني، التي بوأتها أعلى درجات الإبداع، هي قدرتها على الحكي الفني بسهولة، وبلا إجهاد أو تكلف، فهي صاحبة الأسلوب الآسر، الساحر، والعبارة الجزلة البليغة، ولديها دراية بأدق تفاصيل المجتمع العربي، ومشاكل حواء فيه، وهي صاحبة معايشة دائمة لهموم النساء

العربيات والمسلمات ومحاولة تهميشهن، وعدم إفساح مجال أمامهن للعمل والمشاركة الفعالة في بناء غد مشرق. على أن خروج المرأة للعمل وإثبات نفسها ليس على طريقة العلمانيين والحداثيين والأدب النسوي الذي نقرؤه اليوم في كتابات ضحلة وسيئة فنيا مقارنة بأسلوب خولة القزويني التي ترى أن المرأة لابد لها من الإسهام واقتحام الدروب الوعرة لنيل استقلالها، بشرط عدم الإسفاف مثلما نقرأ في أدب نوال السعداوي وليلى العثمان وميرال الطحاوي وعفاف السيد مثلا!؟

وتبرز مهارات خولة القزويني في الحكي المباشر الحي، النابض بصفات الإجادة، والدال على أنها أديبة متمرسة، لديها دربة على الفضفضة الفنية بمهارة تحسد عليها، وهو ما يذكرنا بالأديب العالمي إرنست هيمنجواي في رائعته «العجوز والبحر» فهي تقص وتسرد، وتحكي. هواجسها، وهواجس المرأة العربية، غير القادرة على المعارضة والثورة، بمنطق من يستطيع اجتياز المحن، والوصول إلى الأهداف، وتحرير نفسه من مشكلات من حوله.

وعن طريق استخدام تقنية ضمير المتكلم، واستعمال طريقة (الراوي) تؤكد الأديبة خولة القزويني أن البوح والاعتراف، لا يعني الإساءة للقيم والأسرة والدين والمجتمع، كعادة التغريبين مثلا، فهي تعترف بضعفها وهوانها.. ولحظات القلق في حياتها، خاصة عندما منعوها من إكمال تعليمها، وضرورة الزواج بمنصور الذي يكبرها في السن، لأنه ثري، ويعقد صفقات مادية مع أخيها محمود.. والأخير مدين له بخمسين ألف دينار كويتي، لهذا كان لابد لهيفاء أن تقبل هذا العرض حفاظا على أخيها وأسرتها، وإلحاحهم عليها وإرغامهم لها على الرضوخ في النهاية!.

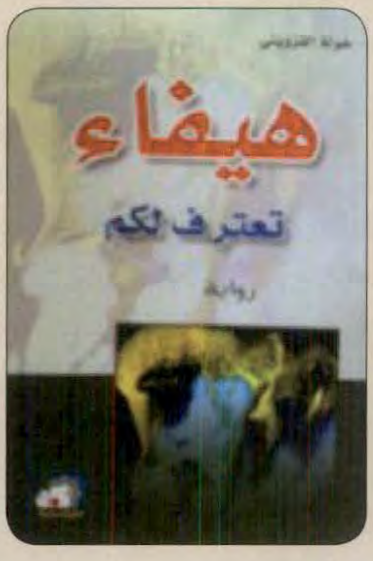

وتستمر الهموم مع هيفاء!

وبعد الزواج، تفاجأ هيفاء أن زوجها مجرد لعبة في يد أمه، وأنه لا هم له سوى اكتناز الأموال، وعقد الصفقات تلو الصفقات في عمليات مشبوهة، مع محمود شقيق هيفاء، التي لم تجد في هذا القصر سوى الهم والأسى وتحكم حماتها في مقاليد الأمور، واستئثارها بشؤون البيت، واعتبار هيفاء مجرد ضيفة لا صاحبة البيت!. وتتدهور أحوال هيفاء النفسية والصحية، وتصاب بحالات قلق واكتئاب، وتنعزل عن الحياة، وتتوقع، وتتذكر-دائما- والدها وأيامه الخوالي، كيف أنه كان يقيها من عوائد الدهر ومصائبه، فهي في أشد حالات الاحتياج إليه الآن!.

وتمضي الأيام مع هيفاء بمرارتها وحنظلها، إلا أنها تقابل الأستاذ سامي الصحفي الليبرالي وزوجه «مروة» التقدمية، والمنادية بالحرية، ونيل الفتاة لإرادتها، فكانت كلماتها بلسما شافيا على قلب هيفاء، هي وزوجها، اللذان أخذاها بعيدا عن هذا الجو المشحون، والبيئة التي عادت طموحها!. وتلد هيفاء ابنها باسل من منصور، وتتأزم حياتها، بعد أن تضبط زوجها يوما ما مع الخادمة، وتفاجأ بأنه يشرب الخمر، ويهملها، ويعاملها بقسوة هو وأمه!.

فتجد ضالتها في الحفلات الخيرية والاجتماعية، وتبدي آراءها بحرية، ويفسح لها الصحفي سامي المجال للحديث، ويعاملها بلطف، ويرى فيها علامات النجابة والذكاء.. ويحثها على أن تصمد وتتحدى عقبات الحياة التي تواجهها!. وهكذا تدخل هيفاء في مواجهات مختلفة وصعاب جمة، وتخرج منها أقوى وأكثر صبرا وإحساسا بأهمية الحياة، وتبرز فيها، فتكمل دراستها وتلتحق بالجامعة.. وتعمل وتصبح امرأة أخرى غير التي كانت!.

اللغة العالية

ويعجب قارئ الرواية من لغتها وأسلوبها وطريقتها الممتعة في الكتابة، والعرض، فخولة القزويني أشبه ما تكون بالرسام الذي يرسم بريشته أفضل اللوحات، وهي كناحت ماهر يصمم أحسن ماعنده، ويبتكر مستخدما أدواته، لا كروائي عادي، وإنما كباحث عن اللآلئ والجواهر، فينتقي منها الأغلى والأعلى قيمة!. إن لغة خولة القزويني تجعلها تكتب بأحاسيسها قبل أن تتخير الكلمات والألفاظ، فهي بانية للغة جديدة، ومؤسسة لطريقة في الرواية العربية، لم نعهدها من قبل في بنات حواء العربيات، وهو أسلوب يجمع بين الإدهاش والمتعة وسهولة العرض، وبلاغة الأداء، والارتباط المحكم بين عناصر الجمال والعبارات، بل بين حروف الكلمة الواحدة.. وهي طريقة مبتكرة تدل على فرط عنايتها باللغة، وبكيفية الكتابة والتعبير، لأن لغتها عصرية وفصحى في آن معا، وتمتلئ بالمجاز، وبالصور المستجدة، وبالاستيلاء على القارئ، من أول وهلة، فلا يترك الرواية ألا بعد أن يظفر منها بأعلى متعة فنية وفكرية معا!. ولعل هذا هو ما حدا بدور النشر المختلفة إلى الإعجاب بهذه الرواية وترجمتها إلى أكثر من لغة، مثل الإنجليزية والفرنسية والأوردية.. وهي ما ستظهر بين يدي القراء قريباً، في الهند وأوربا! ■

سنبلة

محمد بن يوسف كرزون- سورية

سألتُ السنبلةَ: لماذا تُعطين حبّاتِكِ دونَ سؤال؟ تمايلتْ.. اهتزّت.. انحنتْ خجلاً..، جاءَ طائر.. غرّدَ على الشجرة، رفعْتُ رأسي.. شكرتُهُ على غنائه..، لم يهتمَّ بشكري..، طار إلى الأعالي.. وهو يغرّد.

نظرتُ إلى السماء الزرقاء .. جلال منظرها هالني، وكأنّه يعطيني جواباً عن سؤالي للسنبلة. استنشقتُ عبير نسيم عليل، واستنشقَتْهُ معي السنبلة، واستنشقَهُ الطائر..

سألتُ الهواء: لِمَ أنتَ لطيف؟..، خاطبني جدول قربي بخرير مائه الصافي، استيقظ بي شعورٌ غريب: يا هذا.. ما هذه كلّها إلا مخلوقات الله العظيم، تأمّل المخلوقات.. وسبّح الخالق..!

تبارك الله فيما خلق، وما هذه كلها سوى جزء صغير من مخلوقاته سبحانه، ولو حاولنا أن نحصي فلن نحصي عُشْرَ المعشار..، تباركتَ يا ربّ..! يا خالق كلّ شيء!. ■